السرد البِيئي دراسة في كتاب الحيوان للجاحظ

Environmental Narrative A Study of Al-Jahiz's Book of Animals

م.م حسين عماد صادق*، جامعة البصرة- كلية الآداب، العراق،
Hussain.emad@ubbasrah.edu.iq
أ.د لؤي حمزة عباس، جامعة البصرة- كلية الآداب، العراق،
luay.hamaza@uobasrah.edu.iq

تاريخ الارسال:16-01-2026 تاريخ القبول:16-02-2026 تاريخ النشر:11-03-2026

ملخص

يهتم هذا البحث بدراسة العلاقة بين البيئة والأدب، وفق منهج تحليلي، عبر نصوصٍ تراثية سردية في كتاب الحيوان للجاحظ، حيث أشارات الدراسة الى ثلاث موضوعات اساسية في العملية الاجرائية النقدية، أولا المضمون البيئي في الكتاب، ثانيا: مرويات المناخ: مجموعة المرويات التي تعيد تَمثِيلِ المَنَاخِ، فَهِيَ تَنطِقُ بالصِّمتِ الكَامِنِ فِي مَوجُودَاتِ الطَّبِيعَة تجمع بين الأدب والمناخ، ثالثا: الخيال البيئي: إذ يُصبِحُ الخَيَالُ البِيئِيُّ نَمَطاً مِن أَنمَاطِ تمثِيلِ الأَدَبِ بَينَ الإِنسَانِ وَعَالَمِهِ، وَأَن يُقَدِّمَ صُورَةً جَدِيدَةً لِلطَّبِيعَةِ بوصفِهَا عُنصُراً مُشَارِكاً فِي بِنَاءِ الخَيَالِ الأَدَبِي، إذ يكشف البحث العلاقة بين السرد والبيئة تعكس الاتصال بينَ الطَّبيعة عبر رصد تلك المرويات السردية التي تحمل هذه المضامين

الكلمات المفتاحية: السرد البيئي، الخيال البيئي، كتاب الحيوان، الجاحظ

Abstract

This research examines the relationship between the environment and literature, employing an analytical approach through narrative texts from Al-Jahiz's *Kitab al-Hayawan* (Book of Animals). The study identifies three key themes in the critical process: first, the environmental content of the book; second, climate narratives—a collection of narratives that re-present the climate, giving voice to the inherent silence of nature's elements and bridging the gap between literature and climate; and third, environmental imagination, which becomes a mode of literary representation between humanity and its world, presenting a new image of nature as a participant in the construction of literary imagination. The research thus reveals the relationship between narrative and the environment. The connection between nature is reflected through observing those narrative accounts that carry these themes.

Keywords: *word, word, word, word, word.*

المؤلف المرسل*

مقدمة:

إنَّ عَلَاقَةَ السَّردِ بِالبِيئَةِ تَتَمَثَّلُ بِوُجُودِ الإنسَانِ عَلَى الأَرضِ، وتَفَاعُلِهِ مَعَ مُحِيطِهِ، فالسَّردُ بِوصفِهِ فِعلاً إنسَانِيَّاً يُقَدِّمُ وَعيَاً بِيئِيَّاً عِبرَ مَروِيَّاتِ؛ المَنَاخ، والأَرضِ، والحَيوَان، يُبنَى عَلَى أَسَاسِ مَسؤولِيَّةٍ أخلَاقِيَّةٍ تِجَاهَ البِيئَةِ (الجُبيلي، نجاح:مترجم. 2021،ص50) ، لَقَد شَكَّلَ السَّردُ مَسَاحَةً خَصبَةً لِزِرَاعَةِ الأفكَارِ حَيثُ استَطَاعَ أنْ يُستَوعِبَ الأفكَارَ التِي تَبحَثُ فِي العَلَاقَةِ بَينَ الأَدَبِ النَّوعِ الجِنسِي ، كَمَا واستَطَاعَ أنْ يَستَوعِبَ الأفكَارِ التِي تَبحَثُ فِي العَلاقَةِ بَينَ الأَدَبِ والوَعَي الأنتَاجِيْ الاقتِصَادِي كَمَا ويَستَوعِيبُ اليَومِ العَلاقَة التَّارِيخِيَّة مُتَرَامِيَةَ الأطرَافِ بَينَ الأدَبِ والبِيئَة، فالنَّصُ السَّردِيُّ الذِي تَتَّخِذُ فِيهِ البِيئَةُ دَورَاً مِحوَرِيَّاً يَنطَلِقُ مِنْ رُؤيَةٍ تُحَاولُ أنْ تُفَسِّرَ العَلاقَةَ بَينَ الإنسَانِ ومُحِيطِهِ فِي إطَارٍ مُتَوازِنٍ يَرصُدُ التَّكيُفَ والتَّغَيُّر ، إذْ تَرْصُدُ النُّصُوصَ التَّارِيخيَّة والمُعَاصِرَة عَلى حَدٍّ سَواءَ ، الجَّانِبَ الطِّبِيعِي بِوصفِهِ مَشْهَدَاً يُؤَطِّرُ الحَدَثَ ويُغنِي العَالمَ التَّخييلِي (عبد الحافظ، عبير جودت. ، 2024،ص107). ، يُسقِطُ عَلَى البِيئَة مَعَانيَ أخْلاقِيَّةٍ أو وجُودِيَّة ، كَمَا أنَّ مَروِيَّاتِ البِيئَة تَتَّصِلُ إتِّصَالاً وثِيقَاً بِمَفهُومِ النَّقدِ البِيئِي الذِي يَرَى فِي الأدَبِ مَنبَعَاً لِوعِيٍ بِيئِيٍّ جَمَاعِي . وَفِي هَذَا السِّيَاقِ، يُصبِحُ السَّرْدُ فَعْلاً مَعرِفِيّاً وَقِيمِيّاً يَتَحَوَّلُ فِيهِ النَّصُّ إِلَى مَنصَّةٍ لِلتَّأَمُّلِ وَالمُوَاجَهَةِ وَالحِوَارِ مَعَ الإشْكَالِيَّاتِ البِيئِيَّةِ كَالتَّصَحُّرِ، وَالتَّلَوُّثِ، وَالإختِفَاءِ البَيُولُوجِيّ لِلكَائِنَاتِ، بَحثَاً عَن قِيمِ شُيوعِ الثَّقَافَة الخَضراء.

لَقَد قَدَّمَ الوعيُ البِيئِي مَجمُوعَةً مِنَ الأفكَارِ التِي شَكَّلَت مُصطَلَحَاتٍ إجرَائِيَّةً مُهِمَّة تَعَزِّز عَلاقَتَهُ بالنَّظَرِيَّة الأدَبيَّة ، مُصطَلَحَات قَادِرَة عَلَى تأسيسِ وَعيٍ بِيئِي يَربِطُ النَّصَّ الأدَبِي بالأرضِ والإنسَانِ والطَّبِيعَة، واستِحدَاثِ مُمَارَسَةٍ نَقْدِيَّةٍ مَشغُولَةٍ بِتَفكِيكِ عَلاقَةِ الأدَبِ بِالمُحِيطِ الحَيَوي، وكَيفِيَّةِ تَمثِيلِ النُّصُوصِ الأدَبيَّة للأرضِ والنَّبَاتِ والحَيوَانِ والمَنَاخِ والمِيَاه، بِوصفِهَا مُكَوِّنَاتٍ أصِيلَةٍ فِي تَجرُبَةِ الإنسَانِ وفِي تَشكِيلِ هُويَّتِهِ الحَضَارِيَّة، مِثلُ هَذَا النَّوعِ مِنَ التَّركِيزِ عَلَى الشَّكلِ السَّردِيّ، يُتِيحُ للدِرَاسَاتِ البِيئِيَّة استِخدَامُ اللغَةِ لِتَتَبُّع الرَّوابِط بينَ الأنْواعِ السِّردِيَّة بِطُرُقٍ تُسَاعِدُ فِي تَوليدِ سَردِيَّاتٍ جَدِيدَة تُعزِزُ العَلاقَة بَينَ النَّظَرِيَّة السَّردِيَّة والتَّفكِيرِ

البيئي،(**James, E., & Morel, E:355**. (2018). إنَّ دِرَاسَةَ البِيئَةِ المَادِّيَة عِبْرَ الأَدَوَاتِ السَّرديَّةِ تُمَثِّلُ مَيدَانًا نَقْدِيًّاً يُتيحُ للأَدَبِ أَن يَكشُفَ عَن أَبعَادِ الطَّبِيعَةِ بِوصفِهَا عَنَصِراً فَاعلاً دَاخِلَ البُنَى الحِكَائِيَّةَ وُيُعِيدُ تَشكِيلَهَا، فَإنَّ عِلمَ السَّردِ البِيئِي يَمُدُّ الجُسُورَ بَينَ الحَسَاسِيَّةِ الأَدَبِيَّةِ وَالوَعِي البِيئِي، مُؤَكِدًا أَنَّ كُلَّ تَمثِيلٍ للطَبِيعَةِ هُو فِي الوَقتِ نَفسِهِ خِطَابٌ ثَقَافِيٌّ يَدخُلُ فِي فَضَاءِ إِعَادَةِ بِنَاءِ العَلاقَةِ بَينَ الإِنْسَانِ والبِيئَةِ مِنْ مِنظُورٍ أَدَبي ،(**James, E., & Morel, E**. 2020). وَقَد أَدرَكَ الجَاحِظُ ضَرُرَةَ ذَلكَ مسبَقاً فالبِيئَةُ عَندَهُ عُنصُرٌ فَاعِلٌ فِي تَشكِيلِ صِحَّةَ الإِنْسَانِ الجَّسَدِيَّة والعَقلِيَّة، ونِظَامِ حَيَاتِهِ وهُوِيَّتِهِ الثَّقَافِيَّة إِذْ يَجْعَلُ مِنَ البِيئَةِ عُنْصُرَاً مُؤَثِراً فِي تَشكِيلِ الطَّبَائِعِ والأَخلَاقِ والهَيئَاتِ الجَّسَدِيَّةِ، وَيَتَجَلَّى هَّذَا بِوضُوحٍ حِينَ يَربِطُ فَسَادَ الهَواءِ والمَاءَ والتُّربَةِ بِفسَادِ طِبَاعِ البَشَرِ مُبَيِّنَاً أَنَّ هذهِ المُؤَثِرات لَيستْ عَابِرَةً بَل تَترُكُ أَثَرَاً عَمِيقَاً فِي تَكوينِ الأفرَادِ والجَّمَاعَاتِ، ويَستَشهِدُ بِتَغيُّرِ أحوَالِ العَرَبِ فِي خُرَاسَانِ بَعدَ انتِقَالِهِم إِليهَا لِيُبَيِّنَ أَنَّ التَّحَوُّلَ فِي البِيئَةِ يَقُودُ إِلى تَحَوُّلٍ آخَر فِي أَنمَاطِ العَيشِ والسُّلُوك، لِيوَسِّعَ الجَاحِظُ هَذَا الأَثَر لِيَشمُلَ الحَيوانَ والنَّبَاتَ والحَشَرَاتَ فَيَربِطُ لَونَ القَمَلَةِ بِلونِ الشَّعرِ، وَيَجعَلُ مِن طَبَائِعِ الجَّرَادِ والدِّيدَانِ انعِكَاسَاً مُبَاشِرَاً للبِيئَةِ النَّبَاتِيَّة التِي تَتَغَذَى مِنهَا وَفِي وصفِهِ للأنبَاطِ والمَغَارِبَة ومَنْ ظَهَرتْ عَلَيهِم صِفَاتُ شَاذَةٌ: كالأذنَابِ أو شَبَهُ القِرَدَة (الجاحظ،. (1996) ج4، ص70) إذ لم يَتَوقَّفُ عِندَ حُدودِ التَّفسيرِ الغَيبِي، أو المِسخِي، بَل فَتَحَ بَابَ التَّفسيرِ الطَّبِيعِي القَائِم عَلَى فَسَادِ الهَواءِ والمَاءِ والتُّربَةِ، فَهوَ يَرَى أَنَّهَا نِتَاجُ التَّرَاكُماتِ البيئِيَّةِ المُلَوَّثَةِ، وبِهَذَا يَكونُ قَد أرسَى أُسُسَاً لِفِكرَةِ التَّكَيُّف السِّلبِي، الذِي يَحدُثُ عِندَمَا يُصِرُّ الإِنسَانُ عَلى البَقَاءِ فِي وَسَطٍ فَاسِدٍ، تَمثِيْلاً لأثَرِ المَعِيشَة فِي أَمَاكِنَ ضَيِّقَةَ أَو مَوبُوءَة عَلى تَدَهُورِ الصِّحَة وانتِقَالِ العَدوَى، كِمَا لَفَتَ الأنظَار إِلى أَنَّ بعضَ الأَمرَاض لا تُفهَمُ بِمَعزِلٍ عَن بِيئَتِهَا إِذ تَتَولَّدُ مُسبِّبَاتُهَا مِنْ طَبِيعَةِ المَكَانِ أَو مِنْ فَسَادِ الغِذَاءِ والمَاء، وفِي، هَذِا السِّيَاق يَميلُ الجَاحِظُ إِلى تَفسِيرٍ عَقْلانِي بِيئِي عِبرَ مرويَّاتٍ سَرديَّة تَرصُدُ تَجرِبَة الإنسان مَعَ مُحِيطِه . إنَّ التَّفكِيرَ فِي عَلَاقَةِ الأَدَب بِالبِيئَة فِي كِتَابِ الحَيْوانِ يَستَدعِي النَّظَرَ فِي طَبِيعَةِ مَشرُوعِ الجَاحِظِ ذَاتَهُ الذِيْ أَسَّسَ إِلى خِطَابٍ يُوصِلُ

الإنْسَانَ بِمُحِيطِهِ البِيئِي الحَيَوِي عِبْر وَسَائِطَ لُغَوِيَّةٍ سَرِدِيَّةٍ تَحمِلُ أبْعَاداً فَلسَفِيَّةً إيكُولوجِيَّةً، حَتَّى لَيَبْدُو الكِتَابُ مُختَبَراً لِطَرَائِق العَيش وأشكَالِ التَّكِيُّف البِيئِي، فَيَغْدُو النّصُ حَقلاً مَعرِفِيّاً مَفتُوحَاً عَلَى نَحوٍ يَكشُفُ العَلَاقَةَ الجَّدَليَّةَ بَينَ السَّردِ والعَالَم وإذَا نُظِرَ إلَى طَبِيعَةَ المُعَالَجَات التِي يُقَدِّمُهَا الجَاحِظُ؛ فأنَّ البِيئَةَ تُشَكِّلُ بِنيَةً مُتَأصِّلَةً لِخِطَابَاتِه، إذْ يُنَبِّهُ إلى أثَرِ المَنَاخِ فِيْ طِبَاعِ الإنسَانِ والحَيوانِ، وتَأثُّرِ الكَائِنَاتِ بَعَوامِلِ المَاءِ والحَرَارَةِ الجُغرَافِيَّة فِي خِطَابٍ يُؤَسِّسُ لِوعيٍ بِيئِيٍّ مُبَكِّرٍ دَاخِلَ بِنَاءٍ أَدَبِيٍّ سَرِدِيٍّ، وَإلى جَانِبِ ذَلكَ، يَنْهضُ المَجَازُ بِدَورٍ مِحورِيٍّ فِي جَعلِ الطَّبِيعَةِ نِاطِقَةً بَالرُّمُوزِ، فَتُصبِحُ، الصَّحرَاءُ تَعبِيراً مَجَازِيّاً للتِيهِ، والمَطَرُ بِشَارَةٌ الخِصبِ والتَّجَدُّدِ.

1. المَضمُونُ البِيئِي

تُحِيلُ مَرويات الحَيوان إلى مَعرِفَة كَامِنَة فِي السَّرد، يُمكِنُ لَهَا أنْ تُفَسِّرَ عَدِيدَ الظَّواهِر، وإن تَفكِيكَ هَذهِ الإحَالاتِ المَعرِفِيَّةً يَتَطَلَّبُ مَعرِفَةً بِما تُحِيلُ إليهِ عِبرَ بِنَائِهَا السَّردِي إذْ يُوَظَّفُ السَّردُ فِي بِنَاءِ مَضمُونٍ بِيئِي دَاخِلِي ، مِن خِلالِ تَمثِيلِ البِيئَةِ سَرِدِيًّا ومن صُورِ هذا التَّمثيلِ: وعَيُهُ بالإيقَاعِ البِيئِي مِنْ خِلَالِ إدْرَاكِ الإنسِجَامِ العَمِيق بَينَ الكَائِنَاتِ الحَيَّة والزَّمَن الطَّبِيعِي فِيْ دَوَرَانِهِ اليَومِي والسَّنَوي، فَهُو نَوعٌ مِنَ التّوافُقِ الإيقَاعِي الحَيَوي الذِي يَضبِطُ سُلُوكَ الكَائِنَات ويَجعَلُهَا تَسيرُ وفْقَ إيقَاعَاتٍ كَونِيَّة لا تَنفَصِلُ عَنْ حَرَكَة الليلِ والنَّهَار والفُصُولِ وتَغَيُّرَاتِ المَنَاخ. هَذَا الإيقَاعُ البَايَولوُجِي يَتَّصِلُ بالأدَبِ مِن خِلالِ التَّمثيل السَّردِي للبِيئَة مُضِيئَاً العَلَاقَة بَينَ البِيئةِ والأَدَبِ إذ تُشَكِّلُ المَرويات وعيَاً مُبَكِّرَاً بِدَورِ الزَّمَن الكَونِي فِي تَشكِيلِ سَلوكِ الكَائِنَات. وقَد مَثَّل الجَاحِظُ هَذَ التَّنَاغُم بِقَولِهِ: " وشقائق النّعمان والخيريّ يصنع ذلك، ويتفتّح بالنهار. وينضمّ بالليل، والنّيلوفر الذي ينبت في الماء يغيب الليل كلّه ويظهر بالنهار، والسّمك الذي يقال له الكوسج. في جوفه شحمة طيّبة، وهم يسمّونها الكبد، فإن اصطادوا هذه السّمكة ليلا وجدوا هذه الشّحمة فيها وافرةً، وإن اصطادوها نهارا لم توجد." (الجاحظ، (1996 ج6، 364.) ففِي مَعرضِ رِوايَتِهِ لتَجرِبَةٍ طَبِيعيَّةٍ يَسرُدُ الجَاحِظُ وعَيهُ

بالإيقَاعِ الزَّمَنِي الذِي تُنَظِّمُهُ الحَيَاة، حِيثُ يَعرِضُ إلى تَفَتُّحِ الأزْهَارِ وانغِلاقِهَا تَبَعَاً لِتَعَاقُبِ الليلِ والنَّهَار، كَمَا يَصِفُ حَرَكَةَ نبَاتٍ مَائِيٍّ يَختَفِي فِي الظَّلامِ ويَعُودُ للظُّهُورِ نَهَاراً، ثُمَّ يُقَدِّمُ مِثَالاً أكثَرَ عُمقَاً فِي عَالمِ الحَيوانِ حِينَ يَربِطُ تَكَوُّنِ كَبِدِ الكَوسَجِ بالليلِ والنَّهَارِ، هذهِ المَشَاهِدُ السَّردِيَّةُ تَكشُفُ عَنِ انسِجَامٍ كَونِيٍّ يَربِطُ بينَ مَظَاهِرِ الحَيَاةِ جميعَاً عبرِ الزَّمنِ الطَّبِيعِي، فالزَّمنُ عُنصُرٌ وجُودِيٌّ بِالنِسبَةِ للكَائِنَات هَذَا مَا تُفصِحُ عِنْهُ المِرويَّاتُ البِيئيَّة فِي الحَيوانِ فَهُو مُنظِّمٌ خَفِي للوَظَائِفِ الحَيويَّة والنُّظُمِ البِيئيَّة حيث يُفهم الكائن في ضوء الزمن الذي يعيشه، بوصفهِ كائناً مَرهُونَاً بتغيرات الظرف الزمني. وقَد أشَارَ الجَاحِظ فِي مَروِيَّةٍ أخرَى إلى عَلَاقَة البِيئَة بالإنسَانِ: " قال: ووصف بعض الأوائل شبه ما بين النار والإنسان، فجعل ذلك قرابة ومشاكلة، قال: وليس بين الأرض وبين الإنسان، ولا بين الإنسان، والماء، ولا بين الهواء والإنسان، مثل قرابة ما بينه وبين النار؛ لأن الأرض إنما هي أمّ للنبات، [وليس للماء] إلا أنه مركب. وهو لا يغذو؛ إلّا ما يعقده الطبخ وليس للهواء فيه إلا النسيم المتقلّب. وهذه الأمور وإن كانت زائدة، وكانت النفوس تتلف مع فقد بعضها، فطريق المشاكلة والقرابة غير طريق إدخال المرفق وجرّ المنفعة، ودفع المضرّة. قال: وإنما قضيت لها بالقرابة، لأني وجدت الإنسان يحيا ويعيش في حيث تحيا النار وتعيش، وتموت وتتلف حيث يموت الإنسان ويتلف. وقد تدخل نار في بعض المطامير والجباب ، والمغارات، والمعادن ، فتجدها متى ماتت هناك علمنا أن الإنسان متى صار في ذلك الموضع مات. ولذلك لا يدخلها أحد ما دامت النار إذا صارت فيها ماتت. ولذلك يعمد أصحاب المعادن والحفاير إذا هجموا على فتق في بطن الإرض أو مغارة في أعماقها أو أضعافها، قدّموا شمعة في طرفها أو في رأسها نار، فإن ثبتت النار وعاشت دخلوا في طلب الجواهر من الذهب وغير ذلك. وإلا لم يتعرّضوا له. وإنما يكون دخولهم بحياة النار، وامتناعهم بموت النار. (الجاحظ 1996 ج5، ص109) إذ يَعقِدُ الجَاحِظُ مُمَاثَلَةً دَقِيقَةً بِينَ الإنسَانِ والنَّارِ مُقَدِّمَاً تَصَوُّرَاً بِيئِيَّاً يُؤسِسُ رُؤيَةً كِونِيَةً تَرَى فِي الإنْسَانِ جُزءَاً مِن شَبَكَةً عَنَاصِر الطَّبِيعَةِ فالنَّصُّ يُفتَتَحُ بِفِكْرَةِ المُمَاثَلَةِ؛ تأكِيدَاً عَلى مَا يَجمَعُ الإنسَان بالنَّارِ خِلافَ المَاءِ والهَواءِ والأرْض، وهُو

بِذلِكَ يُعيدُ صِيَاغَةَ العَلاقَة بِينَ الكَائِن والبِيئَة مِن مِنظُورٍ تِأويْلِي؛ إذ يَرى الجِاحِظُ أنَّ الإنسَانَ والنَّارِ يَشتَرِكَانِ فِي شُرُوطِ الحَيَاةِ والمَوتِ، فَكِلاهُمَا يَحيَى فِي فَضَاءٍ بِيئِي و يَفنَى فِيهِ، فالنّارُ هِي الإنْسَانُ الذِي يتَّقِدُ شُعلَة ويَتَعَاظَمُ حتّى يتَضاءَلُ ويَفنَى وهِيَ قِياسٌ وجُودِيٌّ للإنسَانِ وهِي شَرِيكٌ وَمِعيَارٌ حَيَوِيٌّ فِي أعمَالٍ مُختَلِفَةٍ-كما يَزعُم- إذ استدعى تجربة المعدِّنين الذين يقدّمون شمعة أو ناراً في المغارات قبل الدخول، تَمثِيلاً لِمقدَارِ التَّشَابُهِ بَينَ النَّارِ والإنسَانِ فِي سَرِدِيَّةٍ بِيئِيَّةٍ تُظهِرُ أنَّ الحَيَاةَ الإنسَانِيَّةَ لا تَنفَصِلُ عَن مُرَاقَبَةِ الطَّبِيعَةِ واستِشعَارِ رُدُودِ أَفعَالِهَا.

وقَد ذَكَر الجَاحِظُ فِي مَوضِعٍ آخَرَ دَوْرَة حيَاةِ سَمَك البِرستُوج، "قال: والبرستوج سمك يقطع أمواج الماء، ويسبح إلى البصرة من الزنج، ثم يعود ما فضل عن صيد الناس إلى بلاده وبحره. وذلك أبعد ممّا بين البصرة إلى العليق المرار الكثيرة. وهم لا يصيدون من البحر فيما بين البصرة إلى الزنج من البرستوج شيئا إلّا في إبان مجيئها إلينا ورجوعها عنّا، وإلّا فالبحر منها فارغ خال.فعامة الطير أعجب من حمامكم، وعامّة السّمك أعجب من الطّير"(االجاحظ 1996،ج3، ص263) إذ يُقَدِّمُ الجَاحِظُ فِي مَروِيَّتِهِ لَوحَةً بِيئِيَّةً غَنِيَّةً حِينَ يَتَحَدَّثُ عَن سَمَكِ "البِرستُوج" الذِي يَقطَعُ أَمْواجَ البَحرِ قَادِمَاً مِن سَواحِلِ الزُّنجِ إلى البَصرَةِ ثُمَّ عَائِدَاً أدْرَاجَهُ فِي مُحَاولَةٍ لِرسمِ بِيئِيّ لِدَورَةِ حَيَاتِهِ عِبرَ السَّردِ ، إذ تَصِفُ المَروِيَّةُ حَرَكَةَ سَمَكٍ عَجِيبٍ لَكنَّ فِي عُمقِهَا انفِتَاحٌ عَلَى إدْرَاكٍ مُبَكِّرٍ لَنِظَامِ البِيئَةِ فِي أعمَاقِ المَاءِ، فالبِرستُوج لا يُصَادُ إلَّا فِي إبَانِ قُدُومِهِ وَرُجُوعِهِ ومَاعَدَا ذَلكَ فإنَّ البَحرَ يَظَلُّ مِنهُ خَالِيَاً كَأنَّمَا هُو كَائِنٌ يَملُكُ سِرَّهُ؛ يَهَبُ خَيرَهُ سَاعَة يَشَاءُ ويَحجِبُ ذَاتَهُ حِينَ يَشَاءُ. تُمَثِّلُ هَذهِ الإشَارَةُ رَمزَاً للتَوازُنِ البِيئِي، إذ لا يَنفَصِلُ السَّمَكُ عَنِ البَحرِ، ولا البَحرُ عَنِ جُغرافِيَّتِهِ المُمتَدَّة مِنَ الزُّنجِ إلى البَصرَة، وهذَا يُشيرُ إلى مَبدَأ التَّوازُنِ البِيئِي بِينَ الإنسَان وسَائِرِ المَخلُوقَاتِ فِيْ الطَّبِيعَة، في تَلقِيهِ لإيقَاعِهَا البِيئِي، حيثُ يُصبِحُ السَّردُ حَامِلاً للمَعرِفَة البيْئيَّة والوَعِي الأيكُولوجِي بالانْظِمَة وتَداخُلِهَا.

2. مَروِيَّاتُ المَنَاخُ

إنَّ الحِكَايَةَ تَمتَلِكُ قُدرَةً لا تَملِكُهَا البَيَانَاتُ و التَّقَارِيرِ العِلمِيَّة عَلَى تَمثِيلِ المَنَاخِ، فَهِيَ تَنطِقُ بالصِّمتِ الكَامِنِ فِي مَوجُودَاتِ الطَّبِيعَة، وتَجعَلُ مِنَ المَنَاخِ تَجرُبةً مَحسُوسَةً، فالرِّيَاحُ التِي تُثِيرُ سَحَاباً والأَرضُ التِي غَمَرَهَا الطُّوفَان، تُشَارِكُه فِي صِيَاغَةِ الكَون وطَبِيعَتِهِ عِبرَ الحِكَايَة بِلُغَةٍ مَجَازِيَّةٍ يَتحوَّلُ فِيهَا السَّردُ إلى فِعلٍ يُنتِجُ وعَياً بِيئِيَّاً ومُقَاوَمَةً جَمَالِيَّةً للخَرَابِ؛ إذَا كَانَ مِحورهُ الكَوارِثُ المَنَاخِيَّة (smith, J., Tyszczuk, R., & Butler, R. "Eds" 2014.:45) إذ تَمَثِّلُ المَروِيَّاتُ المَنَاخِيَّةُ فِي كِتَابِ الحَيوان جُزءَاً مِن هَذَا الوَعِي الطَّبِيعِي البيئِي وارتبَاطِهِ بالإنسَانِ والحَيوانِ والنَّبَات، إذ يُمَثِلُ الصِّنفُ الخَبَرِي والحِكَائِي نَمَطاً رَئِيسَيَّاً فِي عَمليَّةِ تَشَكُّلِ الوَعِي عِبرَ تَمثِيلِهَا للمَنَاخِ، إذ يُوحِي بِأنَّ الجَّاحِظَ لَم يَقصِدِ التوثيقَ المُجرَّدَ للظواهرِ الطبيعيَّةِ، بل سَعَى إلى بِنَاءِ رؤيةٍ تُقَرِّبُ القَارِئَ مِن فَهمِ أثَرِ المَنَاخِ فِي الكَائِنَاتِ والأَمكِنَةِ والطَّبَائِع. يُقَدِّمُ الجَاحِظُ فِي مَروِيَّاتِهِ وَصفَاً لأثَرِ المَنَاخِ فِي تَشكِيلِ الحَيَاةِ والطِّبَائِعِ والسُّلوكِ ، سَواءَ أكَانَ ذَلكَ فِي الإنسَانِ أَو الحَيوانِ، فَحيْنَ يَصِفُ تَأثِيْرَ الحَرِّ والبَردِ فِي الأجْسَامِ، أَو يَروِي عَنْ هِجْرَةِ الأسمَاكِ والطُّيُورِ بِحَسَبِ تَغَيُّرِ الفُصُولِ فإنَّهُ يُؤَسسُ لِمَنظُورٍ مَنَاخِيٍّ عِبْرِ السَّرد . وَهَذِهِ الأَخبَارُ وإن بَدَتْ فِي ظَاهِرِهَا تَقَارِيرَ عَن وَقَائِعَ طَبِيعيةٍ، فإنَّها تَحمِلُ فِي بَاطِنِهَا إدرَاكَاً عَلمِيَّاً مُبكِراً يُؤَكِّدُ عَلى التَّلازمِ بَين المَنَاخِ والتَّوازنِ البِيئِيّ. يَقُولُ الجَّاحِظُ: " والبلاد ليس يشتد بردها على كثرة الثلج، فقد تكون بلدة أبرد وثلجها أقل، والماء ليس يجمد للبرد فقط، فيكون متى رأينا بلدة ثلجها أكثر، حكمنا أن نصيبها من البرد أوفر. وقد تكون الليلة باردة جدا، وتكون صنّبرة فلا يجمد الماء، ويجمد فيما هو أقلّ منها بردا. وقد يختلف جمود الماء في الليلة ذات الريح، على خلاف ما يقدّرون ويظنون. وقد خبرني من لا أرتاب بخبره، أنهم كانوا في موضع من الجبل، يستغشون به بلبس المبطّنات ، ومتى صبوا ماء في إناء زجاج، ووضعوه تحت السماء، جمد من ساعته. فليس جمود الماء بالبرد فقط، ولا بد من شروط ومقادير، واختلاف جواهر، ومقابلات أحوال، كسرعة البرد في بعض الأدهان، وإبطائه عن بعض وكاختلاف عمله في الماء المغلى، وفي الماء المتروك على حاله وكاختلاف عمله في الماء والنبيذ، وكما يعتري البول من الخثورة والجمود، على قدر طبائع

الطعام والقلة. والزّيت خاصة يصيبه المقدار القليل من النار، فيستحيل من الحرارة إلى مقدار لا يستحيل إليه ما هو أحرّ (الجاحظ "1996"،ج5، ص90) يُحَوِّلُ الجَاحِظُ المُلاحَظَةَ الطَّبيعيَّةَ المَبنِيَّة عَلى التَّجرُبَةِ والخِبرَةِ البَشَرِيَّةِ إلى لُغَةٍ عِبرَ السّرِدِ، إذ يَتَنَاوَلُ ظَاهِرَةَ المَنَاخِ- بِخَاصَّة عِلاقَةُ البَردِ بِتَجَمُّدِ المَاءِ- في إطَارٍ مِنَ التَّمثيلِ السَّردِي، يبدَأُ السّرِدُ بِنَقضِ البَدَاهَةِ المَنَاخِيَّة حِينَ يَقُولُ(البلادُ ليس يتشتدُّ بردهَا على كِثرَةِ الثَّلج ..) إذ يَحضُرُ صُوتُ الجَاحِظِ في الإرسَالِ السَّردِي في تَنَاولِ الظَّاهِرَةِ المَنَاخِيَّة وتَفكِيكِهَا إذ إنَّ هَذَا الاستِهلَالُ ببعدِهِ النَّقدِي للفِكرَةِ الشَّعبيَّة المُتَبَنَّاة، يُؤسِسُ لِعَقلانيّةِ الوَعي عِبَر السّرد. ثُمّ ينتَقِلُ إلى مُوضُوعَةٍ تَحمِلُ الدِّلَالَةِ ذَاتَهَا وهِيَ تَجريبيَّة في عَلاقَة المَاءِ بالبُرُودَةِ والحَرَارَة فالمَاءُ لا يَجمُدُ بالبُرُودَةِ فَقَط وقَدْ يَجمَدُ فِيمَا هُو أقلُّ مِنهَا بُرودَةً، مؤسساً إلى فِهمِ المَنَاخِ عِبْرَ شَبَكَةٍ مُعَقَّدَةٍ مِنَ التَّفَاعُلاتِ ، فالتّجَمُّدُ بِحَسَبِهِ فِهمِهِ استِجابَةٌ لِجُمْلَةٍ مِنَ المُؤثّرَاتِ مِثَل: الرِيَاحِ والمَكَانِ وطَبيعَةِ السَّائِلِ وسُرعَةِ البُرودةِ، وتَتَجَلَّى بَرَاعَة الجَاحِظِ السَّردِيَّةِ في إدْرَاجِهِ الخَبَرَ الذِي اسنَدَهُ لِمَنْ لا يَرتَابُ لِخَبَرِهِ! حِيثُ يتَخِذُ السّرِدُ شِكْلَ الرُّوايَة التَّجرِيبيَّة، فَيجْعَلُ مِنَ الرَّاوِي شَاهِدَاً، ويُواصِلُ الجَاحِظُ في مُستوىً آخَرَ تَفكِيكَ الظَّاهِرَة مِن خِلالِ الاستِعَانَة بِمَبدَأ التَّبَايُن، حِينَ يُعللُ اخْتِلافَ جُمُودِ المَاءِ أو الزّيت أو النّبِيذ بجَوهَرِالمَادَّة وطَبِيعَتِها ، إذ تُعززُ البِنْيَةُ الكليَّةُ للمَروِيَّةِ فِكْرَةَ الإنسَانِ بوصفِهِ وسيطاً بينَ الطّبِيعَةِ ومَعرِفَتِهَا عِبرَ تَفَاعُلِهِ مَعَ المَنَاخ. وَيَتَنَاولُ الجَاحِظُ مَجمُوعَةً مِنَ الاخبَارِ التي تَتَنَاولُ المَنَاخَ ، وهِي أخبَارٌ تَبحَثُ في أثرِ الرّيح والمَطرِ، وفِي عُمقِها رُؤيَةٌ بِيئيّةٌ وثَقَافيّة، تَعكِسُ وَعيَ الإنسَان العَرَبِي بالمَنَاخِ وبالتّحوُّلاتِ البِيئيّةِ ، فالخَبَرُ الذِي يَروِيهِ الأَصمَعِي عَن قَولِ العَرَبِ في البَادِيَة" إذا ظَهَرِ البِياضُ قَلَّ السّوادُ وإذا ظَهَرَ السَّوادُ قَلَّ البَيَاض (الجاحظ "1996 "ج3، ص 118.) يَدُلُّ عَلَى ثُنَائِيَّةِ الخَصبِ والجَدبِ، الحَياةِ والمَوتِ ، الإدرَارُ والقَحْطِ. فالبَيَاضُ يُشيرُ إلى اللبنِ والأَقطِ، أيْ إلى زَمنٍ خَصبٍ تَدُرُّ فِيهِ المَاشِيَة اللبَنَ ، بَينَمَا يَدُلُّ السَّوادُ على التَّمرِ أي عامٌ مُجْدِبٌ يَكثُرُ فِيهِ التَّمرَ لِقِلَّةِ المَرَاعِي وجَفَافِهَا، إذ يُصبِحُ التَّبَادُلُ الرَّمزِي بينَ اللونَين عِنْدَ العَرَبِ قَانُوناً بِيئيَّاً، يَربِطُ بِينَ الظّاهِرَة المَنَاخِيَّةِ

والاقتِصَادِيَّةِ ، وفِي قَولِ الفُرسِ: " إذا زَخَرَت الأودِيَّة بالمَاءِ كَثُرَ التَّمرُ، وإذا اشتَدّتِ الرِّيَاحُ كَثُرَ الحَبُّ " (الجاحظ"1996"، ج3، ص118)بُعدٌ أكثَر تَجرِيبيَّة، إذ يلاحِظُ المُرَاقِبُ عَلاقَةً سَبَبيَّةً بَينَ ارتِفَاعِ المَيَاهِ وكِثرَةِ الرُّطوبَةِ وبينَ وفرَةِ بعضِ المَزروعَاتِ دُونَ غَيرِهَا ، ويبلغُ الوعِي بالمَنَاخِ ذَروتَهُ فِي الخَبَرِ الذِي يَروِيهِ العِتَابِي حِينَ يَقُولُ " إنَّهُ دَخَلَ وادِياً خَصيباً بينَ جَبَلينِ فَوجَدَهُ عَامِراً بالزَّرعِ والنَّبَاتِ ولَكنِهُ لاحظَ أن سُكَانَهُ ذَوو وجُوهٍ مُهَجَّنَة وألوانٍ فَاسِدَة. فَسَأَلَ عَنِ السَبَبِ فَقَال شِيخٌ مِنهُم: ليسَ لنا رِيحٌ" (الجاحظ"1996"،ج3 ، ص 119.) إذ يدخُلُ الخَبَرُ فِي المَعرِفَة الأنثُروبولوجيّة المَنَاخِيّة، في أنَّ الرِيحَ عُنصرٌ مِن عَنَاصِرِ التّوازُنِ الطَّبِيعَي تَسهُمُ فِي صَفَاءِ الهَواءِ وتَنقِيَةِ الجَسَدِ وغِيَابُهَا يُؤَدِّي إلى فَسَادِ اللونِ وثِقلِ الجَوّ، إذ تَدُلُّ هذهِ الرُّؤيةُ عَلَى إدرَاكٍ مُبَكِّرٍ لأثَرِ المَنَاخِ فِي تَكوينِ الطَبِيعَةِ، وتَتَقَاطَعُ فِي هٰذِهِ المَروِيَّاتِ عَنَاصِرُ الطَّبِيعَةِ مَعَ بِنيَةِ الحِكَايَةِ والخَبَر، فَيَستَمِدُّ الحَدَثُ السَّرديُّ مَرجِعِيَّتَهُ مِنَ الحَدَثِ الطَّبِيعِي ذِي البُعدِ البِيئِي، تَمثِيلاً للتَّحَوُّلِ المُنَاخِيّ. وَبِذٰلِكَ تَتَحَوَّلُ المَروِيَّاتُ المُنَاخِيَّةُ عِنْدَ الجَاحِظِ إلَى خِطَابٍ مَعرِفِيٍّ ،يُؤَكِّدُ أَنَّ البِيئَةَ فَاعِلٌ سَردِيٌّ وَثَقَافِيٌّ يَساهَمُ فِي تَشكِيلِ المَعنَى، وَصَوْغِ تَصوُّرِ الإنسَانِ عَن نَفسِهِ وَعَن العَالَمِ مِن حَولِهِ.

3. الخَيَالُ البِيئِي

إنَّ الحَدِيثَ عَن خَيَالٍ بِيئِيٍّ فِي مِادَّةٍ تَدرُسُ نَصَّاً تُرَاثِيَّاً يَعنِي التَّفكِير بمَكَانَة الطَّبِيعَةِ فِي تَّارِيخِ الفِكرِ العَرَبِي، ومَركَزِيَّةِ النُّصُوصِ الأدبِيَّة فِي تَمثِيلِ الظَّاهِرَة ، لِذَا فإنَّ عَلاقَة البِيئَة بالنَّص الأَدَبِي تُبنَى عَلى أَسَاسِ القُدرَة التِي يَتَمَتَّعُ بِهَا السَّارِدُ فِي تَمثِيلِ البِيئة(**10**:1995، **Buell, L**).. إذ يُنبِتُ فِي روحِ التَّلَقِي إحسَاساً لا نِهَائِيَّاً بالجَمَال، مُتَجَلِّيَاً فِي عمَلِيَّةٍ كِتَابَةٍ لِلطَّبِيعَةِ بوصفِهَا فَضَاءً تُشَكِلُهُ بُنَى لُغَوِيَّةٍ عِبرَ السَّرْد ، حَيْث تَبرُزِ العَلاَقَةُ المُتَبَادَلَةِ بَينَ الإنسَانِ وَالمَكَانِ، وَالمُحِيطِ الطَّبِيعِيّ. إذ يُصبِحُ الخَيَالُ البِيئِيُّ نَمَطاً مِن أَنمَاطِ تمثِيلِ الأَدَبِ بَينَ الإنسَانِ وَعَالَمِهِ، وَأَن يُقَدِّمَ صُورَةً جَدِيدَةً لِلطَّبِيعَةِ بوصفِهَا عُنصُراً مُشَارِكاً فِي بِنَاءِ الخَيَال الأدَبِي فِي عَمَلِيَّةِ إصغَاءٍ مُتَبَادَلٍ يُرَسِّخُ العَلاقَةَ الشِّعرِيَّة بينَ الطَّبيعة والإنسَانِ مُؤَسِّساً لِمَفهُومٍ جَدِيدٍ لِلخَيَالِ

يَربِطُ مَا بَينَ الأَدَبِ وَالإيكُولُوجيَا؛ فِي سِيَاقٍ وَاحِدٍ مِنَ الإدرَاكِ الجَمَالِيّ ، فَكِتَابُ الحَيوانِ واحِدٌ مِن أقرَبِ الكُتُبِ لِتَمثِيلِ هِذهِ الظَّاهِرَة عَلى مُستوى الفِكرِ الرَّسمِي والشَّعبِي نَظَراً لِاستِعَابِهِ مَعَاييرَ المُعتَمَدِ الأدَبِي والأدَبِ الشَّعبِي المَحَلِّي ، بجُملَةٍ مِنَ المَروِيَّاتِ المُوجَّهَة بِيئِيّاً إذ جّاءَ فيهِ : " فزعم كما ترى أنّ الصّخور كانت ليّنة، وأنّ الأشجار: الطلح والسّيال كانت خضيدا لا شوك عليها. وزعم بعض المفسّرين وأصحاب الأخبار، أنّ الشّوك إنما اعتراها في صبيحة اليوم الذي زعمت النّصارى فيه أنّ المسيح ابن الله. وكان مقاتل يقول- حدّثنا بذلك عنه أبو عقيل السّواق، وكما أحد رواته والحاملين عنه- إنّ الصّخور كانت ليّنة، وإنّ قدم إبراهيم عليه السلام أثرت في تلك الصخرة، كتأثير أقدام الناس في ذلك الزّمان. إلّا أنّ الله تعالى توقّى تلك الآثار، وعفّى عليها، ومسحها ومحاها، وترك أثر مقام إبراهيم صلى الله عليه وسلم. والحجّة إنما هي في إفراده بذلك ومحو ما سواه من آثار أقدام الناس. ليس أنّ إبراهيم صلى الله عليه وسلم كان وطئ على صخرة خلقاء يابسة فأثّر فيها" (الجاحظ"1996،" ج4، ص205.) فِي مَروِيَّةِ الجَاحِظِ الَّتِي تَتَحَدَّثُ عَن لُيُونَةِ الصُّخُورِ، وَخُضُودِ الأَشْجَارِ وَآثَارِ الأَقدَامِ يَبدُو النَّصُّ كَأَنَّهُ حِوَارٌ كَونِيٌّ بَينَ الطَّبِيعَةِ وَالإنسَانِ مَبنِيٌّ بِخَيالٍ شِعرِي بِيئِي يِربِطُ العِلّة بأسبابٍ طُقُوسيَّة، فَالصَّخرُ والشِّجرُ والنباتُ فِي مرويّةِ الجّاحظ كَائِناتٌ مَاديّة مُتحوّلَةَ وهَذَا التّحولُ يُبنَى عَلى طَقسٍ سِرديّ إثنِيّ يُحيلُ إلى حكَايَاتٍ مُرتَبِطَة بالمَسيحِ وإبرَاهِيم النَّبيين، حيثُ تَبرُزُ قِيمَةُ الخَيَالِ البِيئِيّ عِندَ الجَاحِظِ؛ فَهُوَ خَيَالٌ يُعِيدُ لِلطَّبِيعَةِ مَركَزَهَا وَيَجعَلُهَا شَرِيكَةً فِي الحِكَايَةِ لَا مَسْرَحًا لِهَا فَيُصْبِحُ الحَجَرُ وَالشَّجَرُ وَالمَاءِ وَالهَوَاءُ أَدَوَاتٍ لِلكِتَابَةِ وَالتَّفْكِيرِ والتَّأمل ، وَهَكَذَا يَتَحَوَّلُ العَالَمُ عِندَهُ إِلَى نَصٍّ طَبِيعِيٍّ يَكتُبُ. إِنَّ مَسحَ اللهِ لِآثَارِ الأَقدَامِ فِي النّصِّ يَعْنِي قُدرَةً وسُلطَانَاً فِي التَّحَكُّمِ بالطَّبِيعَةِ وصِيَاغَتِهَا وَهُنَا يَبدُو الإيمَانُ نَفسُهُ كَخَيَالٍ بِيئِيٍّ يُعِيدُ نَسجَ الكَونِ وَيَجْعَلُ الوُجُودَ مَسرَحًا لِلدَّلَالَةِ وَبِذَلِكَ يَكُونُ الجَاحِظُ قَد جَعَلَ مِن الأَدَبِ نِظَامًا للتأمُلِ فِي الحَيَاةِ وتَمثِيلِ الطَّبِيعَةِ، إذ لَا يَرَى فِي الحَجَرِ مَادَّةً صَامتةً بَل يَرَى فِيهِ صَوتًا سَاكِنَاً وَفِي الشَّجَرِ سَرًّا وَفِي الأَثَرِ خِطَابًا، فَيُصبِحُ الخَيَالُ البِيئِيُّ عِندَهُ مَنهَجًا لِقراءة العَالَمِ وَهَكَذَا يَتَحَوَّلُ نَصُّ

الجَاحِظِ إِلَى مِسَاحَةٍ سَرديَّةٍ لِلتَّأَمُّلِ البِيئِيّ،الذِي يُعِيدُ صِيَاغَةَ فهم الأدَبِ للأشيَاء ، إذ يَنطِقُ فِيهِ الحَجَرُ وَيَبْكِي فِيهِ الغَيمُ وَيَتَحَرَّكُ فِيهِ الشَّجَرُ، وَيَكُونُ الإنسَانُ شَرِيكَاً فِي عِزفِ الوُجُودِ. وقَد ذَكَرَ الجَاحِظُ فِي مَروِيَّةٍ أُخرَى إنسِجَامُ الإنسَانِ مَع الإيقَاعِ البِيئِي، إذ يَقُولُ: " وقلت له مرّة: قيل لما سرجويه: ما بال الأكرة وسكّان البساتين، مع أكلهم الكرّاث والتمر، وشربهم ماء السّواقي على المالح أقلّ النّاس خفشانا وعميانا وعمشانا وعورا؟ قال: إني فكّرت في ذلك فلم أجد له علّة إلّا طول وقوع أبصارهم على الخضر" (الجاحظ "1996 "ج3، ص333) يُقَدِّمُ الجاحِظُ في هذِهِ المَروِيَّةِ مِن كِتابِ الحَيَوانِ مَشهَدًا سَردِيًّا قَصيرًا يَقُومُ على بِنْيَةٍ حِوَارِيَّةٍ بَسِيطَةٍ بَيْنَ المُتَكَلِّمِ وسَرَجُويهِ، إلَّا أَنَّ هذِهِ البِنيَةَ السَّرديَّةَ تَنطَوِي على خَيالٍ بِيئِيٍّ يَربِطُ الإنسانَ بِعالَمِ الطَّبِيعَةِ عَبرَ عَلاقَةٍ عُضوِيَّةٍ تَقُومُ على الإدراكِ البَصَرِيّ وَاللَّونِ وَالبِيئَةِ. إنَّ بِنَاءً تَخيِيلِيًّا يُعيدُ تَنظِيمَ العَلاقَةِ بَينَ الإنسانِ وَالعَناصِرِ الطَّبِيعِيَّةِ يتَخِذُ منَ الخَيَال نَمَطاً لتَمثيلٍ بِيئي، فَالجاحِظُ يَجعَلُ مِنَ السُّؤالِ السَّرديّ عَن سَبَبِ سَلامَةِ أَبصارِ الأَكَرَةِ وَسُكّانِ البَساتِينِ مَدخَلًا إلى تَأَمُّلٍ تَخيِيلِيٍّ في أَثَرِ الخُضرَةِ وَالبِيئَةِ الزِّراعِيَّةِ في الجَسَدِ الإنسانِيّ، وَبِذَلِكَ يَتَحَوَّلُ الحَدَثُ البَسِيطُ إلى مَشهَدٍ مِنَ الخَيالِ البِيئِيّ الَّذي يَجمَعُ بَيْنَ التَّجرِبَة الحِسّية واللغة ، إذ يُؤَسِّسُ التَّصَوُّرَ على مَبدَأ الانغِماسِ الطَّوِيلِ في اللَّونِ الأَخضَرِ بَوصَفِهِ سَبَبًا في صَفاءِ البَصَرِ، وَهُوَ تَأوِيلٌ يَربِطُ الإدراكَ البَصَرِيَّ بِالبِيئَةِ النَّباتِيَّةِ رَبطًا بِنيَوِيًّا. وَمِن مَنظُورِ البِنيَةِ السَّردِيَّةِ، تَتَكَوَّنُ المَروِيَّةُ مِن ثَلاثِ طَبَقاتٍ سَردِيَّةٍ مُتَداخِلَةٍ: الأُولَى هِيَ الإطارُ الحِوَارِيُّ الَّذي يَبدَأُ بِقَولِ الرَّاوِي: وَقُلتُ لَهُ مَرَّةً، وَالثَّانِيَةُ هِيَ الحِكايَةُ الثَّانَوِيَّةُ المَنقُولَةُ عَن سَرَجُويهِ، وَالثَّالِثَةُ هِيَ البِنيَةُ التَّأَمُّلِيَّةُ الَّتي تُبرِزُ فِعلَ التَّفكِيرِ "فَكَّرتُ في ذلِكَ" بَوصَفِهِ مِحوَرًا داخِلِيًّا لِلسَّردِ. هذَا التَّنَاوُبُ بَينَ الحِوارِ وَالتَّفكِيرِ يُشَكِّلُ نَسَقًا بِنيَوِيًّا يُعَبِّرُ عَن انتِقالِ السَّردِ مِنَ الخارِجِ (المُلاحَظَةِ) إلى الدّاخِلِ (التَّأَمُّلِ)، في حَرَكَةٍ تمَثِّلُ الانتِقالَ مِن ظاهِرِ الطَّبِيعَةِ إلى باطِنِها، أَي مِنَ المَشهَدِ إلى الفِكرَةِ. وَبِهذَا يُصبِحُ الخَيالُ البِيئِيُّ عِندَ الجاحِظِ وَسِيلَةً سَردِيَّةً لا لاكتِشافِ الطَّبِيعَةِ فَقَط بل لاكتِشافِ عَلاقَةِ الإنسانِ بِها، إذ تُقَدَّمُ البِيئَةُ هُنا كَقُوَّةٍ مُكَوِّنَةٍ لِلبِنيَةِ الإنسَانِيَّةِ لا كَخَلفِيَّةٍ خارِجِيَّةٍ. فَالخُضرَةُ دالٌ تَخيُّلِيٌّ يؤَدِّي

وَظِيفَةً بِنيَوِيَّةً في تَفسِيرِ التَّوازُنِ البَصَرِيّ وَالجَسَدِيّ. وَعَلى هذَا الأَسَاسِ يُمكِنُ القُولَ إنَّ البِنيَةَ السَّرِدِيَّةَ في هذِهِ المَروِيَّةِ تُعيدُ بِنَاءَ عَلاقَةِ الإنسانِ بِالطَّبِيعَةِ عَلى نَحوٍ يَجمَعُ بَينَ اللغَةِ والبِيئَة والخَيَال، إذ يَتَجاوَزُ الجاحِظُ الوَصفَ التَّجرِيبِيَّ إلى رُؤيَةٍ خَيالِيَّةٍ تَقُومُ على وَحدَةِ الكائِنِ وَالبِيئَةِ، مِمَّا يَجعَلُ السَّردَ البِيئِيَّ لَدَيهِ بِنيَةً مَعرِفِيَّةً مُتَكامِلَةً تَمزِجُ بَينَ الحِكايَةِ وَالمُلاحَظَةِ، وَبَينَ الخَيالِ وَالمادَّةِ الحِسِّيَّةِ، في تَجَلٍّ مُبَكِّرٍ لِما يُمْكِنُ تَسْمِيَتُهُ بِالخَيالِ البِيئِيّ. ويَذكُرُ فِي مَروِيَّةٍ أخرَى حِكَايَةَ طَائِرَي الصَّافِرِ والتَّنوط: " فمن العجب أن يكون بعض الحيوان لا ينام كالصافر والتنوّط؛ فإنّهما إذا كان اللّيل فإن أحدهما يتدلّى من غصن الشّجرة، ويضمّ عليه رجليه، وينكّس رأسه، ثمّ لا يزال يصيح حتّى يبرق النور. والآخر لا يزال يتنقّل في زوايا بيته، ولا يأخذه القرار، خوفا على نفسه، فلا يزال كذلك، وقد نتف قبل ذلك ممّا على ظهور الأشجار مما يشبه الليف فنفشه، ثمّ فتل منه حبلا، ثمّ عمل منه كهيئة القفّة، ثمّ جعله مدلّى بذلك الحبل، وعقده بطرف غصن من تلك الأغصان؛ إلّا أنّ ذلك بترصيع ونسج، ومداخلة عجيبة؛ ثمّ يتّخذ عشّه فيه، ويأوي إليه مخافة على نفسه" ،(الجاحظ "1996"ج3، ص405.) يُصوِّرُ الجاحِظُ مَشهَدًا طَبيعيًّا يُبنَى عَلَى الخَيالَ البِيئِيّ في بُعدِهِ التَّمثيليّ فَهُوَ يَصفُ سُلوكَ طيرَينِ هُما الصَّافِرُ وَالتَّنوُّطُ وَصفًا يَجعَلُ مِنْهُما كائِنَينِ بوَعيٍ وَمَخاوِفَ وَغَرائِزَ تَشي بِعَلاقَةٍ مُعَقَّدَةٍ بِالطَّبيعةِ فَإذا نُظِرَ إلَى البِناءِ السَّرِدِيّ في المَروِيَّةِ وُجِدَ أنّها تَقُومُ عَلَى تَتابُعٍ سَرِدِيّ يَنبَثِقُ مِن فِعلِ الدَّهشَةِ "فَمِنَ العَجَبِ" وَهُوَ مِفتاحٌ بِنائِيٌّ يُؤَسِّسُ لِتوَتُّرٍ بَينَ المَألوفِ وَغَيرِ المَألوفِ وَبَينَ المَعرِفَةِ العِلميَّةِ وَالخَيالِ الَّذي يُضفي الحَياةَ عَلَى الظَّواهِرِ الطَّبيعِيَّةِ ثُمَّ يَنتَقِلُ الجاحِظُ إلَى عَرضِ الحَدَثِ في زَمنٍ لَيليّ مُوحٍ بِالسَّكينَةِ وَالخَفَاءِ غَيرَ أَنَّ الكائِنَيْنِ اللَّذَينِ يَصفُهُما لا يَعرِفَانِ النَّومَ فَتَتحوَّلُ اللَّيلَةُ إلَى مَسرَحٍ لِلحَركَةِ وَالصَّوتِ وَاليَقَظَةِ الدَّائِمَةِ فَيَغدُو النَّصُّ أَشبَهَ بلوحَةٍ سَرِدِيَّةٍ حَيَّةٍ تُجَسِّدُ الطَّبيعةَ في حالِ حَذرٍ وَتَيَقُّظٍ، إذ يقومُ البِناءُ السَّرِدِيُّ عَلَى التَّدرُّجِ مِنَ الوَصفِ الخَارِجِيّ إلَى التَّفصيلِ العَمَلِيّ حَيثُ يَبيّنُ الجاحِظُ كَيفَ يَصنَعُ التَّنوُّطُ عُشَّهُ فَيَنتِفُ اللّيفَ وَيَنفُشُهُ ثُمَّ يَفتِلُ مِنهُ حَبلًا وَيَصنَعُ بِهِ قُفَّةً مُعلَّقَةً وَهُوَ نِسقٌ يُبرزُ إنتِظَامَ السَّردِ حَولَ أَفعالٍ مُتَسَلسِلَةٍ

تُحكَمُها عَلَّةٌ غَائِيَّةٌ هِيَ حِمايةُ النَّفسِ، وَهَكذا تَتشَكَّلُ البِناءُ االسَّردِي مِن وَحداتٍ ثَلاثٍ مُتَتابِعَةٍ الدَّهشَةُ وَالفِعلُ وَالغَايَةُ وَهُوَ ما يُمَنَحُ النَّصَّ اِنسيابًا حَيَوِيًّا يَكشِفُ عَن رُؤيَةٍ سَردِيَّةٍ تَقومُ عَلَى التَّشابُكِ بَينَ المُلاحَظَةِ العِلميَّةِ وَالتَّمثيلِ الأَدَبيِّ أَمَّا مِن جِهةِ الخَيالِ البِيئِيِّ فَإِنَّ الجاحِظَ لا يُقَدِّمُ الطَّبيعةَ بوَصْفِها فَضاءً خارِجِيّاً بَل بوَصْفِها شَريكًا في الحِكايةِ فالأشجارُ وَالأغصانُ وَاللّيفُ عَناصِرُ فاعِلَةٌ تَتَدَاخَلُ في نَسجِ المَشهَدِ وَتُساهِمُ في بِنَاءِ المَعنى إذ إِنَّها تُمَنحُ الكائِنَ مَأوًى وَتَحمِيَهُ مِن خَوفِهِ وَهَذا التَّشابُكُ بَينَ الحَيَوانِ وَمُحيطِهِ يُجَسِّدُ فَهمًا بِيئِيًّا مُبَكِّرًا لِعَلاقَةِ الكائِنِ بِمَسكنِهِ وَبِالطَّبيعةِ الَّتِي تُؤويهِ وَيُحيلُ هَذا التَّمثيلُ إِلَى خَيالٍ بِيئِيٍّ عَميقٍ يَجعَلُ مِنَ السُّلوكِ الغَريزِيِّ فِعلًا واعِيًا ذَا جَمالٍ وَتَنظيمٍ فَيَبدُو الطَّيرُ فاعِلاً جَمالِياً يَنسُجُ عُشَّهُ كَما يَنسُجُ الفَنَّانُ نَصَّهُ وَهَكذا تَتَضافَرُ في هذا المَقطعِ البِناءُ السَّردِيُّ وَالخَيالُ البِيئِيُّ لِتَمثيلِ الطَّبيعةِ تَمثيلًا حَيًّا مُتَكامِلًا يَجعَلُ مِنَ الكائِناتِ الصَّغِيرَةِ مِرآةً لِفِكرٍ إِنسانيٍّ يَرَى في الطَّبيعةِ نِظامًا سَرمَدِيًّا يُعبِّرُ عَن الجَمالِ وَالعَقلِ في آنٍ واحِدٍ.

الخاتمة

في خِتامِ هذا البَحثِ، يُمكِنُ القَولُ إِنَّ السَّردَ البِيئِيَّ يُمثِّلُ أُفُقًا مَعرِفِيًّا يَكشِفُ عَن شَبَكَةِ العَلاقَاتِ المُعَقَّدَةِ الَّتي تَربِطُ بَينَ الإِنسَانِ وَالبِيئَةِ وَالنَّصِّ الأَدَبِيِّ، في اتِّصالٍ تَفاعُلِيٍّ دائِمٍ يَقومُ عَلى مَبدَإِ التَّمثِيلِ، حَيثُ يَغدو الأَدَبُ فِضاءً لِإِعادَةِ صِياغَةِ العالَمِ الطَّبيعِيِّ وَتَجسِيدِهِ رَمزيًّا وَسَرديًّا. وَقَد أَظهَرَتِ النَّتائِجُ أَنَّ الفَصلَ بَينَ الأَدَبِ وَالبِيئَةِ فَصلٌ إِجرائِيٌّ لِأَنَّ النَّصَّ الأَدَبِيَّ يَتَشَكَّلُ دَائِمًا في سِياقٍ بِيئِيٍّ يُغَذِّي خِطابَهُ وَيَتَداخَلُ مَعَ بِنائِهِ الدَّلالِيِّ.

كَمَا يَتَّضِحُ أَنَّ التُّراثَ الأَدَبِيَّ العَرَبِيَّ يَمتَلِكُ طاقَةً تَأوِيلِيَّةً عالِيَةً تُؤَهِّلُهُ لِأَن يَكونَ حَقلاً خِصبًا لِتَطبيقِ النَّظَرِيَّاتِ النَّقدِيَّةِ الحَديثَةِ، شَريطةَ مُقارَبَتِهِ بِمَناهِجَ تَستَجيبُ لِخُصوصِيَّتِهِ الثَّقافِيَّةِ وَالمَعرِفِيَّةِ. وَفي هذا السِّياقِ يَحضُرُ كِتابُ الحَيَوانِ لِلجاحِظِ نَموذَجًا بِيئِيًّا رائِدًا في الثَّقافَةِ العَرَبِيَّةِ، إِذ تُجَسِّدُ مَروِيّاتُهُ شَكلاً مُتَقَدِّمًا مِن أَشكالِ وَصفِ البِيئَةِ وَتَمثِيلِها، مِن خِلالِ رَصدِ الكائِناتِ وَعَلاقاتِها وَتَفاعُلاتِها مَعَ الإِنسَانِ وَالمَحيطِ الطَّبيعِيِّ.

وَيَكشِفُ البَحثُ أَيضًا عَن مُوسوعِيَّةِ الجاحِظِ المَعرِفِيَّةِ الَّتي أَتاحَت لَهُ أَن يَجعَلَ مِن كِتابِهِ وَثيقَةً سَرديَّةً تَشهَدُ عَلى حُضورِ البِيئَةِ في الأَدَبِ العَرَبِيِّ القَديمِ، لا بوصْفِها خَلفِيَّةً صامِتَةً، بَل بوصْفِها عُنصُرًا فاعِلاً في إِنتاجِ المَعنَى. وَمِن ثَمَّ يَتَبَيَّنُ أَنَّ القُدرَةَ عَلى رِوايَةِ البِيئَةِ وَالكِتابَةِ عَنِ المُناخِ عَبرَ الخَيالِ البِيئِيِّ تَفتَرِضُ وَعيًا مَعرِفِيًّا وَأَدَواتٍ سَرديَّةً قادِرَةً عَلى تَحويلِ العَلاقَةِ مَعَ الطَّبيعَةِ إِلى مادَّةٍ أَدَبِيَّةٍ مُنتِجَةٍ وَدالَّةٍ. وَعَليهِ، يُمكِنُ القَولُ إِنَّ إِعادَةَ قِراءَةِ التُّراثِ مِن مَنظورِ السَّردِ البِيئِيِّ لا تُساهِمُ فَقط في تَوسيعِ أُفُقِ الدِّراسَةِ النَّقدِيَّةِ، بَل تَفتَحُ أَيضًا إِمكاناتٍ جَديدَةً لِفَهمِ العَلاقَةِ بَينَ الإِنسَانِ وَالعالَمِ الَّذي يَسكُنُهُ وَيُعيدُ سَردَهُ.

المراجع العربية

-ابن منظور، محمد بن مكرم. (1414ه). لسان العرب (ط 3). دار صادر.

-الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. (1996). كتاب الحيوان (تحقيق عبد السلام هارون). دار الجيل.

-الجُبيلي، نجاح (مترجم). (2021). النقد البيئي: مقدمات، مقاربات، تطبيقات (ط 1). دار شهريار.

-عبد الحافظ، عبير جودت. (2024). النقد البيئي ونظرية الأدب (ط 1). دار كنوز المعرفة.

المراجع الأجنبية

-Buell, L. (1995). The environmental imagination. The Belknap Press of Harvard University Press.

-James, E., & Morel, E. (2018). Ecocriticism and narrative theory: An introduction. English Studies, 99(4), 355–365. https://doi.org/10.1080/0013838X.2018.1465255

-James, E., & Morel, E. (2020). Environment and narrative. Ohio State University Press. https://lccn.loc.gov/2019034865

-Smith, J., Tyszczuk, R., & Butler, R. (Eds.). (2014). Culture and climate change: Narrative. Shed.